عصور - تصنيف ج- المجلد 22 / العدد02 - خاص - أوت 2023
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

معرف الكائن الرقمي للمقال:10.54239/2319-022-999-005 (DOI)

أثر ابن الجزّار القيرواني في تطوير ممارسة الطب في شمال إفريقيا وأوروبا

The influence of Ibn Al Jazzar Al-Qayrawani on the development of medical practice in North Africa and Europe

أ. د. جهيدة بوجمعة *
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة/ الجزائر
boudjem3a.djahida@gmail.com

تاريخ الإرسال:2023/02/19 تاريخ المراجعة: 2023/03/01 تاريخ القبول:2023/07/15

الملخص

يُعد ابن الجزّار القيرواني (285-369/898-978م) من أهم أعلام الثقافة الطبية والصيدلانية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، غير أنه لا يكاد يُذكر، ولا يُعرف عليه إلا القليل اليسير المتشابه عن حياته وإنجازاته، وذلك لأن معظم كتبه مازالت مخطوطات لم تُطبع و لم تُنشر، كما أنها صعبة الوصول لتشتتها عبر الكثير من المكتبات الخاصة والعامة ما بين أوروبا وتونس والعالم العربي، والكثير منها ضاع في البحر غرقا أثناء الحملة الإسبانية على تونس في عهد الدولة الحفصية (626-981/1228-1574م) حيث نُقلت أثناءها الكثير من المكتبات عبر البحر على مراكب صغيرة غرقت في عرض البحر. فضلا على تجاهل علماء المالكية ذكره في كتبهم عمدًا لاتهامه بالتشيع أو على الأقل لخدمته للدولة الفاطمية الشيعية.

كان ابن الجّزار أكثرَ عالم عربي إسلامي تُرجمت مصنفاته إلى اللغات الحية الأوروبية، وخاصة مُصنف "زاد المسافر" و"الإعتماد". ويعود له الفضل في الفصل بين الطب والصيدلة وجعلهما علمين منفصلين، كما فصل بين التخصصات الطبية وألف عن كل تخصص، واهتم

* أ.د. جهيدة بوجمعة / جامعة وهران 1

بطب الأطفال وطب الشيوخ.. كما خَبِر في صنع الأدوية والأعشاب والتدريس فجاءه الطلاب من كل صوب.

الكلمات المفتاحية: ابن الجزّار القيرواني؛ الطب؛ الصيدلة؛ شمال افريقيا؛ أوروبا؛ زاد المسافر؛ الاعتماد؛

Abstract:

Ibn al-Jazzar al-Qayrawani (285-369/898-978 AD) is considered one of the most important figures in the medical and pharmaceutical culture in the history of Arab-Islamic civilization.

However, he is hardly mentioned, and little is known about his life and achievements, because most of his books are still manuscripts that have not been printed or published, and they are difficult to access because they are dispersed through many private and public libraries between Europe, Tunisia and the Arab world, and Many of them were lost at sea by drowning during the Spanish campaign against Tunisia during the era of the Hafsid dynasty (626-981/1228-1574 AD), during which many libraries were transported across the sea on small boats that sank at sea. In addition, the Maliki scholars deliberately ignored his mention in his books to accuse him of Shiism, or at least for his service to the Shiite Fatimid state.

Ibn al-Jazzar was the most Arab-Islamic scholar whose works have been translated into European living languages, especially the works of "Zad al-Musafer" and "Al-Etemad". He is credited with separating medicine and pharmacy and making them two separate sciences, as well as separating medical specialties and a thousand for each specialization, and he cared about pediatrics and geriatric medicine. He also had experience in making medicines and herbs, and in teaching, so students came to him from every direction.

Keywords: Ibn al-Jazzar al-Qayrawani; Medicine; Pharmacy; North Africa; Europe; Zad al-Musafer; Al-Etemad;

-مقدمة

يُعد ابن الجزار القيرواني 285-369هـ/898-978م من أهم أعلام الثقافة الطبية والصيدلانية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، غير أنه لم يأخذ حظوةً كبيرةً في

الاهتمام والشهرة لقلة الدارسين المهتمين بالبحث في آثاره، وذلك يعود إلى أن معظم كتبه مازالت عبارة عن مخطوطات مبعثرة في المكتبات العالمية الخاصة والعامة، وبعضها في عداد المفقود، فضلا عن تجاهل الدول العربية وخاصة تونس عن ذكره والإحتفاء بذكراه، وخاصة الذكرى الألفيه التي كانت في 1980. زيادة عن وجود سبب مذهبي حيث تجاهل علماء المالكية ذكره عمداً لاتهامه بالتَشيع أو على الأقل لخدمة الدولة الفاطمية الشيعية.

سنحاول في هذا البحث المتواضع أن نلقي ما أمكن من الضوء علي ابن الجزّار عَلّنا نُعَرف به وبإنجازاته الطبية والصيدلانية، بطرح الإشكالية التالية والإجابة عليها.

ما هي إنجازات ابن الجزّار الطبية والصيدلانية وكيف أثرت في شمال افريقيا وأوروبا؟

لقد اكتفت بعض المصادر العربية القديمة بإعطاء تعريفات قصيرة ومختصرة عن ابن الجزّار وذكر أهم كتبه، كابن جلجل في طبقات الأطباء، -وعلى ما يبدو كان أول مَن ذكره وعرف به- وابن أبي أُصيبعة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ونقل المحدثون هذه الاختصارات أيضا اعتمادا على القدماء، ونشروا بعض المقالات وفي مقدمتهم بعض الباحثين التونسيين كالدكتور بن مراد ابراهيم في مقال "التداخل اللغوي والثقافي في كتاب "الاعتماد" لأحمد بن الجزار القيرواني "،و الأستاذ سويس محمد، في مقال "ألفية ابن الجزّار"، كما كتب الشيخ حُسين عادل محمد علي كتابا تحت عنوان: ابن الجزار القيرواني، سيرته، مؤلفاته، جهوده في الطب والصيدلة ، العراق 1989. والملاحظ، أن نفس المعلومات القليلة تكررت في هذه الأبحاث وغيرها.

اعتمدنا في بحثنا المتواضع هذا على المنهج التاريخي التحليلي والمنهج الوصفي للوصول إلى أكثر دقة في البحث الذي قسمناه إلى:

المبحث الأول: التعريف بابن الجزّار ونشأته وأساتذته وتلامذته ووفاته وكتبه وأفكاره:

المطلب الأول: التعريف بابن الجزّار ونشأته وأساتذته وتلامذته ووفاته.

المطلب الثاني: التعريف بكتب ابن الجزار وأفكاره.

المبحث الثاني: أثر ابن الجزّار في تطوير ممارسة الطب في شمال افريقيا وأوروبا.
المطلب الأول: أثر ابن الجزّار في تطوير ممارسة الطب في شمال افريقيا.
المطلب الثاني: أثر ابن الجزّار في تطوير ممارسة الطب في أوروبا.
الخاتمة

1- التعريف بابن الجزّارونشأته وأساتذته وتلامذته ووفاته وكتبه و أفكاره

يُعد ابن الجزار مفخرة للحضارة العربية الإسلامية وبالأخص في تاريخ افريقية (تونس) الإسلامي، فلقد كان عالماً موسوعياً واقعياً بَرع في علوم شتى كان على رأسها علم الطبّ والصيدلة اللذان بلغ فيهما شأوا عظيما أظهره في تصنيفه لكتب ظلت خالدة إلى اليوم، وفي علاجات وممارسات وأفكار لاتزال حية يُنظر إليها بكامل الاهتمام.

1-1- التعريف بابن الجزّارنشأته وأساتذته وتلاميذه:

هو أبو أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد أحمد بن الجزّار، ولد حوالي سنة 285هـ/898م في القيروان، في أواخر العهد الأغلبي، في عائلة مشهورة بالعلم، وبخاصة الطب، فقد كان والده ابراهيم بن أحمد ت312هـ/924م كحالا، كما كان ذا ثقافة دينية سُنية واسعة، وكان قد أخذها من علماء عصره وعلى رأسهم محمد بن سحنون ومحمد بن يحيى بن سلام وأحمد بن يزيد، كما كان عمه أبو بكر محمد بن بكر بن محمد بن أحمد ت بعد 322هـ/933م "عالما بالطب حسن النظر فيه".

لم تذكر المصادر إلا ثلاثة من شيوخه أخذ عنهم علوم الطب والصيدلة، وهم: والده وعمه والطبيب الفيلسوف اسحاق بن سليمان توفي بعد 341هـ/ 953م، والذي استقدمه من مصر إلى تونس الأمير الأغلبي زيادة الله الثالث 293هـ/905م (ابن جلجل، 1955 : صص 88 -90) (ابن أبي أُصيبعة، 1957 : ج 3 ص 141) ben milad ahmed (idris(h.r)1962.v 2.p 16).(pp26-31 1933 ،هذا وقد تأثر ابن الجزّار تأثيرا بالغاً بالرغم من أنه كان غير مباشر، بالعالم اسحاق بن عمران ت 279هـ/892م، طبيب افريقيا الأول، ومنشئ مدرسة قيراوان الطبية، الذي كان قد استقدمه من بغداد إلى افريقية الأمير الأغلبي ابراهيم الثاني سنة 264هـ/877م، وذلك لأن ابن الجزّار ولد بعد

وفاة اسحاق الذي ظلت آثاره بعده حيةً، فلقد كان له دوراً كبيراً في نشر الطب والفلسفة وعلوم اخرى في افريقية.

من ناحية أخرى لقد استفاد ابن الجزّار بالتراث الطبي اليوناني وخاصة تراث إبقراط من القرن الرابع قبل الميلاد، وجالينوس من القرن الثاني الميلادي. واستفاد أيضاً من الأطباء المسلمين الذين سابقوه وخاصة الكندي ت 256هـ/870م. فلقد كان ابن الجزّار جامعاً للكتب مع اختلاف تخصصها، حيث ترك عند موته مكتبة زينتها "خمسة وعشرون قنطارا من الكتب الطبية وغيرها" (ابن جلجل، 1955 : 90).

لقد اشتغل ابن الجزّار في تدريس الطب، وكان يأتيه الطلاب من كل جهات البلاده التي كانت تظم تونس وجزءا كبيرا من الجزائر وليبيا، كما كان يأتيه الطلاب من خارج البلاد، غير أن المصادر لم تذكر سوى طالباً واحداً؛ وهو الطبيب الأندلسي أبو حفص عمر بن بريق الذي عاش في أواسط القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). الذي جاء للقيروان ولازم ابن الجزّار ستة أشهر في حدود سنة 350هـ/961م (ابن جلجل، 1955 : 107)، وهذا الطبيب هو الذي أذاع صيت ابن الجزّار في الأندلس، و كان مدرسا لابن جلجل الذي على مايبدو نقل سيرة ابن الجّزار منه وكتبها.

لقد ولد ونشأ ابن الجزّار في القيروان، وكانت القيراوان ورقادة مازالتا تتمتعان بالنهضة الأدبية والعلمية التي بدأت في حكم الأغالبة بالرغم من انتقال حكام البلد الفاطميين إلى عاصمتهم الجديدة المهدية (قاسم محمد محمود الحاج، 2017 :92). ولم يكن مثل معظم علماء المغرب الإسلامي الذين فضلوا الانتقال إلى مصر أوالمشرق أو الأندلس، فلقد ظل في مدينته و في بلاده ولم يغادرها، وعلى ما يبدو كان كثير التنقل في بلاده افريقية للبحث عن الأعشاب لصناعة الأدوية، وهذا ما نستنتجه من كتابه "الاعتماد في الأدوية المفردة"، فقد تحدث فيه عن وجود عشبة "التَرنجيل" في قصطيلية ببلاد الجريد، وعشبة "الأنْجَرة" في سوسة، وعشبة "الأذْخَر" في قفصة وأسافيل افريقيا، وعشبة "القَرْطمانا" في تونس وصطفورية، وعشبة "الشَرم" في باجة (بن مراد ابراهيم، 1986 : 118).

لقد دعا الخليفة الأموي الأندلسي الحكم المستنصر بن عبد الرحمان الناصر ت 366هـ/976م، ابن الجزّار للأندلس، لكنه لم يذهب (المالكي ابو بكر،1983 : ج 2 ص 430)، كما أنه فضل البقاء في افريقية ولم يذهب إلى مصر مع مَن تنافسوا للذهاب مع المعز الفاطمي عند انتقاله إليها سنة 362هـ/973م مع أنه مَن يقرأ كتابه "الوباء ونعت الأسباب المُولدة له في مصرَ، وطُرق الحِيلة في دفع ذلك وعلاج مايتخوف منه" يتصور أن ابن الجزار زار مصر ،غير أنه كتب كتابه من المعلومات التي رواها له مَن سافر وعاد منها، ولذلك ظهرت بعض الأخطاء في الكتاب وذلك لأنه لم يعرف جغرافيتها ولا طبيعة طقسها، فعابه الطبيب المصري علي بن رضوان ت460هـ/1067م في ذلك في كتابه "دفع مضار الأبدان بأرض مصر" حيث قال: " وقد كان أحمد بن ابراهيم الطبيب المغربي المعروف بابن الجزّار وضع في ذلك (أي وباء مصر) مقالة مفردة لم يستقص فيها ما نحتاج إليه من تلخيص القول واستيفاء الوصف في ذكر الأسباب البادية ، وما يحدث عنها وما يدفع به ضررها. وخليق أن يكون عرض له النقصان من قبل أنه رجل من أهل المغرب لم يعاين مصر معاينة اختبار وامتحان، ولكن سمع بها سماعاً، فذكر ما سمع به فقط" (قطاية سليمان، 1982: 92) (بن مراد ابراهيم، 1986 : 118) .

تذكر المستشرقة زغريد هونكة أن ابن الجزّار كان يرابط في فصل الصيف مع جموع السفن التي تتوجه لأوروبا فتقول: " كان يغلق عيادته كلما أقبل الصيف، وانطلقت السفن العربية من مرفأ تونس إلى الشواطىء الغربية لتقوم بحملاتها على الكفار، فيعمل على ظهرها كطبيب" (زيغريد هونكه، 1993 :288)،(الغراري حليمة، 2002 : 19).

لقد وُصف ابن الجزّار بالاستقامة في سلوكه، " وكان قد أخذ بنفسه مأخذا عجيبا في سمته وهديه وقعوده، ولم تحفظ عليه بالقيروان زلّة قط، ولا أخْلد إلى لذة، وكان يشهد الجنائز والعرائس ولا يأكل فيها" (ابن جلجل، 1955 :89)، وكان عزيز النفس أبيها، لا يحب أن يتملك لسلطة بني عبيد الفاطميين، فلم يكن ينتظر منهم العطاء، وذلك لأنه كان غنياً من أسرة غنية حيث ترك هو بنفسه ثروة مقدارها أربعة وعشرون ألف دينار (ابن جلجل، 1955 :90)، فضلا على أنه كان يرى أن العامة لا تهوى بني عبيد

لمذهبهم الشيعي، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن القول بتشيعه كان اتهاما كاذبا (عبد الوهاب حسن حسني، 1965 :ج1، 309)، وخاصة أنه من أسرة سُنية ملكية، وقد يكون هذا الاتهام جاءه من فقهاء عصره لأنه كان يخوض في الفلسفة، وأيضا لأنه ألف كتابا عن الدولة العبيدية، لكنه ألف أيضاً في طبقات القضاة من أهل السنة في افريقية في عهد بني الأغلب، وكان في كتابه يُثني على العلماء والقضاة السنيين ويُعبر عن إعجابه بهم (القاضي عياض، 1968 :213)، وقطعاً هذا الثناء والاعجاب لا يُصدر من شيعي.

لقد عَرف تاريخ وفاة ابن الجزّار اضطرابات كبيرة في تحديده بين مَن ترجموا له، فلقد ذكر حاجي خليفة ت1069 هـ/1657م أن ابن الجزّار توفي في سنة 400هـ/1009-1010م (حاجي خليفة، 1943 : 420)، كما حدد المستشرق بروكلمان الوفاة سنة 395هـ/1004م (بروكلمان كارل، 1959 : ج 4 ص296)، وعلى ما يبدو فإن التارخين بعيدين عن الواقعية، وذلك لأن ابن جلجل كان قد ألف كتابه "طبقات الأطباء والحكماء" وأنهاه في سنة 377هـ/ 987م، وكان ابن الجزّار قد توفي قبل تأليف الكتاب، وابن جلجل أخبرنا أن ابن الجزّار قد عاش نيفا وثمانين سنة، ولذلك ليس من المعقول أن يكون ابن الجزّار قد عاش وتوفي بعد هذا التاريخ (بن مراد ابراهيم،1986 : 119)، لذلك فإننا نأخذ برأي ابن عذاري المراكشي ت 712هـ/1312م ، الذي حدده في سنة 369هـ/980م (بن عذاري، 1948 : ج 1، 237).

1-2-التعريف بكتب ابن الجزّارو أفكاره:

أولا: التعريف بكتب ابن الجزّار

لقد كان لابن الجزّار ثقافة طبية وصيدلانية واسعة جمع فيهما كل التخصصات، فهو طبيب مجتهد في كل الأمراض التي عرفت في زمانه، منها طب الأطفال والشيوخ والنساء والجلد والجهاز العصبي وغيرهم، كان يقيم التجارب العلاجية والدوائية ويُسجل تجاربه وأفكاره في كتب. ولثقافة ابن الجزار الموسوعية فلقد كتب كتبا مهمة في العلوم النقلية أيضا منها في التاريخ والفقه والجغرافية والطبيعيات والفلسفة والأدب العربي.

لقد سجل حسن حسني عبد الوهاب 37 عنواناً لكتب ابن الجزّار حسب المواضيع، وقد أعاد محمد الحبيب الهيلة النظر فيها، فتبين نقصها وأضاف عناوين

جديدة، لكن القائمة كانت منقوصة ومضطربة أيضا، حيث تضمنت 44 عنوانا كان منها أربعة عناوين ليست لابن الجزّار، فأعاد ابراهيم بن مراد البحث وحصر القائمة في ثلاثة وأربعين عنواناً (الشيخ حسين عادل محمد علي، 1989 : 39)، نذكر الكتب الطبية والصيدلانية منها وتمثلت في:

أ. الكتب الطبية والصيدلانية

-المطبوعة والموجودة في نسخ مخطوطة:

1-سياسة الصبيان وتدبيرهم

2-كتاب في المعدة وأمراضها ومداواتها

3-زاد المسافر وقوت الحاضر

4-كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة

5-طب الفقراء والمساكين

6-كتاب العطور

7-طب المشايخ وحفظ صحتهم

8-رسالة البول

9-الفرق بين الاشتباهات والعلل

10-أبدال العقائير

11-كتاب في الكلى والمثانة.

ب. الكتب المفقودة

يُرجع فقدان هذا العدد الكبير من كتب ابن الجزّار إلى الحملة الإسبانية على التونس في عهد الدولة الحفصية 626-981هـ/1228-1574م، حيث وقع في أثنائها الاستيلاء على المكتبات وحملوها إلى روما عن طريق البحر في سفن صغيرة لتُنقل بعد ذلك براً لإسبانيا، غير أن السفن لم تقاوم المياه فضاعت معظم الكتب.(الشيخ حسين عادل محمد علي،1989 :31). وهي:

1-كتاب الخواص

2-مقالة في الجذام وأسبابه وعلاجه

3-كتاب النسيان وطرق تقوية الذاكرة

4-كتاب قوت المقيم

5-كتاب نصائح الأبدار

6-كتاب المُختبرات

7-كتاب النصح في أدوية الخواص والمُلوك

8-كتاب البلغة في حفظ الصحة

9-كتاب البُغية في الأدوية المركبة

10-كتاب العدة لطول المدة

11-كتاب السمائم

12-كتاب المجربات في الطب

13-كتاب في نعت الأسباب المولدة للوباء في مصر

14-كتاب أصول الطب

15-كتاب الحيوان

16-كتاب في مصالح الأغذية

17-رسالة في الزكام وأسبابه وعلاجه

18-رسالة في النوم واليقظة

19-رسالة في التحذر من اخراج الدم من غير حاجة دعت إلى اخراجه

20-رسالة في المقعدة وأوجاعها

21-رسالة في أسباب الوفاة

22-مقالة في الحمامات (بن مراد ابراهيم، 1936 : 122)

ثانيا: التعريف بأفكار ابن الجزّار

لابن الجزّار أفكار كثيرة كانت له الأسبقية فيها من بينها:

لقد كان ابن الجزّار أول مَن فرق بين الطب والصيدلة في تاريخ الطب والصيدلة العربية الإسلامية، وجعلهم عِلمين مختلفين متصلين، فلقد كانت الصيدلة قبله تعتبر

فرعا من الطب العام وجزءا منه، وكان الفصل على مستويين ، مستوى الممارسة والتنظيم، ومستوى التأليف.

أما على المستوى الممارسة والتنظيم، فلقد كان لابن الجزّار في منزله عيادة يستقبل فيها المرضى ويعالجهم، وكانت عيادته تغص بالناس، كان طبيبا يعالج كل الأمراض، وجراحاً يمارس "الشق والبط"، وكان بمنزله أيضا صيدلية وضع فيها معاونا له اسمه "رشيق"، وكان يعد بنفسه الأدوية المركبة والأشربة والمعاجين والمراهم والأقراص واللعوق والسفوف والترياقات...، وكان يُحضر بنفسه الأدوية المُفردة والأغذية الدوائية من الأعشاب المتنوعة التي كان يجمعها بنفسه مسافراً إليها في كل أرجاء افريقية.

أما المستوى الثاني فيخص التأليف حيث خص ابن الجزّار مؤلفات خاصة بالصيدلة ومنفصلة عن مادة الطبّ بكل تخصصاته. أما أهم كتبه الصيدلانية فهي كتاب: "كتاب الاعتماد في الأدوية المُفردة" الذي ألفه بين سنة 322هـ/933م، وسنة 334هـ/945م، وكتاب "البغية في الأدوية المركبة"، وكتاب "كتاب السمائم"، وكتاب "في الحيوان"، وكتاب "في مصالح الأغذية" (ابن جلجل، 1955 : 89).

لقد عزز ابن الجزّار المتَانة القوية بين اللغة العربية والثقافة الطبية والصيدلانية، وجعلها لغة علم تستوعب كل المصطلحات العلمية، فكان يجتهد للبحث عن المصطلحات العلمية العربية وإن لا توجد يأتي بها من شكل النبتة و مذاقها.

لقد اعتمد ابن الجزّار في بحوثه للتَعرف على المرض وصنع الدواء الذي يليق به على التجربة الفردية الدقيقة، فقد كان يُشك في كل شيء حتى في ما وصل إليه غيرُه من دواء، فهو يُخضع الأمر للتجربة حتى يصل إلى الحقيقة، "ويؤكد على وجوب التفريق بين الصواب والخطأ بأي شكل من الأشكال وعدم موالاة أي شخص مهما بلغ من مرتبة العلوم إذا كان لا يجانب العمل الصحيح" (الشيخ حسين عادل محمد علي، 1989 :33).

كان يشترط ابن الجزّار قبل أن يدرس العشبة التي يحصل عليها ويستعملها أن يُعرف بأسمائها باللغة العربية واليونانية (الرومية) والفارسية والبربرية والسريانية واللاتينية، وكان كثيراً ما يخترع أسماءً وخاصة في البربرية إن لم يوجد وذلك حتى تُعرف العشبة وفائدتها وأضرارها.

كان ابن الجزّار يستعمل النوع الجيّد من الأعشاب، ويذكر طرق تحضير الدواء به والجرعات التي يجب أن تؤخذ، ولا يترك الأمر سراً، ويحذر من الغش في الأدوية. (الشيخ حسين عادل محمد علي، 1989 :17).

لقد كان ابن الجزّار يفرق بين التخصصات الطبية، كان أول مَن خصص طب الأطفال في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية حيث كتب عنهم كتاباً "سياسة الصبيان وتدبيرهم"، يتحدث فيه عن الأمراض التي تصيبهم وكيفية التعامل معها والعناية بالطفل منذ ولادته.

يقول ابن الجزّار: "إن معرفة سياسة الصبيان وتدبيرهم باب عظيم الخطر، جليل القدر، ولم أرَّ لأحد من الأوائل المتقدمين المرضين من ذلك كتابا كاملا شافيا بل رأيت ما يحتاج من علمه ومعرفته من ذلك متفرقاً في كتب شتى وأماكن مختلفة"(ابن الجزّار،1968 : 57)، والملاحظ أن ابن سينا أخذ من كتاب ابن الجزّار الكثير في كتابه القانون (قاسم محمد محمود الحاج، 1983 :123).

كان ابن الجزّار يُعلم العلماء التواضع العلمي والأمانة، فعلى الرغم من مكانته العلمية وصَيته الواسع إلا أنه " يُعلن بكل لطف ووفاء كونه لم يكن سوى جامع لعيون ما ذكره أفاضل من مكنون علمهم وصحيح تجربتهم، لكنه يمزج هذه بتلك بنتائج تجارُبية وملاحظاته السديدة، وتحقيقاته الشخصية، فهو لا يعتمد على قول مَن قال بل يجربه بنفسه ويتحقق منه بخبرته ونتائج أعماله العلمية فيبقى ما صح لديه بالخبرة لا الخَبَر" (الشيخ حسين عادل محمد علي،1989 : 36)

كان ابن الجزّار يقرأ لمن سبقه من علماء الطبّ والنبات من اليونانين والعرب المسلمين وغيرهم مهما بلغوا من الشهرة وإذا لاحظ ما لا يفيد يشير إليه و لا يذكره، "فكان في أحيان كثيرة يلجأ إلى حذف ضروب نباتية ذُكرت قبله معتبرا الحديث عنها غير مجد ونافع إما لأنها مجهولة عند العرب، أو لأنه هو ذاته يجهلها" (بن مراد ابراهيم، 1983 : 17) وعلى سبيل المثال في هذا، لقد ذكر العالم اليوناني ديوسقريدس سبعة أنواع من نبتة اليَتوع إلا أن ابن الجزّار لم يذكر إلا نوعا واحدا منه فقط (بن مراد ابراهيم، 1983 : 18).

اعتمد ابن الجزّار في كتبه على منهجية التقسيم والتفريع، وهذا ما جعل أفكاره تأتي منظمة مفهومة ومرتبة، و هذا الأمر تميز به أهل المغرب العربي في كثير من الميادين (السويسي محمد، 1983 :22)

2- أثر ابن الجزّار في تطوير ممارسة الطب في افريقيا الشمالية وأوروبا

لقد كان ابن الجزّار سبباً في تطور الطبّ والصيدلة ممارسةً وتدريساً وتأليفاً ليس فقط في افريقية (تونس) الأغلبية (التي كانت تظم تونس والكثير من ليبيا والجزائر)، بل في عموم شمال إفريقيا بما فيها مصر الفاطمية، بل لقد وصل نورُه للمشرق العربي وأوروبا أيضا أين انتشرت أفكاره وترجمت مصنفاتُه المهمة.

2-1-أثر ابن الجزّار في تطوير ممارسة الطب في شمال افريقيا

كان ابن الجزّار ضوءا ساطعا في عالم الطب والصيدلة أنار شمال افريقيا في عهده واستمر من بعده فكرا وتطبيقا وإنسانية ودواء، وعلى الرغم من أن المصادر التي تحدثت عن ابن الجزّار لم تعطينا صوراً واضحة عن هذا إلا أننا يمكننا أن نستنتج ذلك من بعض الأخبار المتناثرة في ما وصلنا من كتبه وتتمثل فيما يلي:

جعل الطب تخصصات كتب عن كل تخصص منفرد عن الآخر، فطب للأطفال وطب للمشايخ، وطب للمسالك البولية...وصنع لكل مرض وألم دواء حتى وصلت الأدوية إلى 278 دواء، من بينها في الدرجة الأولى 219 دواء نباتي أما البقية الباقية فأكثرها معدني وحيواني.

لقد اهتم ابن الجزّار بنشر ثقافة طبية لكافة الناس، فقد كان يضبط أسماء النباتات الطبية باللغة العربية وبالتسمية البربرية حتى يُعرف للعامة جميعاً، فمثلا يذكر نبتة التي تُعرف بالشبْرم وأيضا البَاهوت، ويذكر أن البربر تسميها التانْقيت، ويصفها وصفا دقيقاً حتى يكاد يرسمها قولاً لتكون واضحة معلومة لا يُختلف فيها.

لم يكن أنانياً يحفظ علمه وجهده لنفسه حتى تأتيه وفود المرضى من كل جانب، بل كان يصرح عن مكان العشبة الصالحة بالتدقيق، حتى يذهب إليها كل مريض، كأن يقول مثلاً: توجد عشبة الباهوت (التانقيت) عندنا بالمغرب بأرض باجة وصقيلية.(الشيخ حسين عادل محمد علي، 1989 : 16)

كان كريما مع مرضاه الفقراء، ولهم معه معروفا، فقد كان يشفق عليهم، ولا يأخذ منهم أجراً ويتفانى في صنع الدواء لهم. كما كتب كتابا خاصا لهم أسماه طب الفقراء والمساكين يعرض فيه الأمراض التي قد تصيبهم والحلول العلاجية لها (ابن جلجل، 1955 :88).

أسس مدرسة للطب والصيدلة جذبت طلاب علم الطب من كل مكان، من داخل البلاد وخارجها، فمع أن المصادر لم تذكر سوى تلميذه الطبيب الأندلسي عمر بن حفص بن بريق؛ إلا أننا نتوقع أن يكون الوافون من الأندلس ومن مصر ومن المشرق الإسلامي وذلك لأنه كان مشهورا، وكانت كتبه منتشرة بين علمائها، وقد أشار ابن الجزّار بنفسه إلى هذا في مقدمة كتابه "طب الفقراء والمساكين" إلى ما لقيه كتابة "زاد المسافر" من حظوة بين الناس فقال: " شاع في البلدان خبره وحسن عند الحكماء أثره"(ابن الجزار، 2009 : 8).

لعل أهم ما يُبرز المنزلة التي حظي بها كتاب "زاد المسافر" في المشرق الابيات الشهيرة التي امتدحه بها أبو الفتح كشاجم ت 360هـ/970م من أهل الرملة بفلسطين، من شعراء سيف الدولة الحمدانية. التي يقول فيها:

أبا جعفر أبقيتَ حيّاً وميتاً مفاخرَ في ظهرِ الزمانِ عظاماً
رأيتُ على "زاد المسافر"عندنا من الناظرين العارفين زحاماً
فأيقنتُ أن لو كانَ حيّا لوقته يُحَنا لما سمّى التمام تماماً
سأحمدُ انعاماً لأحمد لم تزل مواقعها عند الكرام كراماً

(كشاجم أبو الفتوح، 1970 :499).

ثم لا يخفى أن عددا من علماء المشارقة إن لم يأتوا للدراسة عند ابن الجزّار في حياته، فقد تعلموا على كتبه، كابن سينا الذي أخذ من ابن الجزّار في كتابه "القانون في الطب"، وابن البيطار في كتابه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"وغيرهم. كما أخذ منه علماء المغرب وعلى رأسهم الشريف الإدريسي ت 559هـ/1166م الذي نقل عليه كتابه "الجامع لأشتات النبات" (الشيخ حسين عادل محمد علي، 1989 :37).

2-2-أثر ابن الجزّار في تطوير ممارسة الطبّ في أوروبا:

لم يكتف ابن الجزّار بتطوير ممارسة الطب في بلده افريقية وشمال افريقيا، بل لقد وصل شعاعه في تطوير الطب والصيدلة ممارسة وكتابة وأدوية إلى أوروبا التي شهدت نهضة طبية انتشرت إلى أرجائها الواسعة في حياة ابن الجزّار وبعد وفاته وذلك اعتماداً على الطرق التالية:

لقد وصل تطوير الطب والصيدلة إلى أوروبا من ابن الجزّار عن طريق ترجمة كتبه إلى اللغات العلمية التي كانت مستعملة فيها آنذاك من القرن العاشر إلى القرن السادس عشر، وهي اللغة اللاتينية واليونانية والعبرية. ونذكر هنا أنه لا يوجد طبيب عربي مسلم قد اهتم الأربيون بترجمة كتبه كابن الجزّار، ويجزم بن مراد ابراهيم أن ابن الجزّار أكثر طبيب عربي مسلم ترجمت كتبه للغات الأوروبية، ويذكر ثلاثة ظواهر دالة على اهتمام الأوروبا بكتبه وهي:

أ-ترجم كتابه "زاد المسافر" إلى اللغة اليونانية وقد كانت الكتب العربية التي ترجمت إلى اليونانية لا تتجاوز الستة وكان "زاد المسافر"أحدها.

ب-استعما كتاب "زاد المسافر"في الدراسة الطبية، مما زاد الإقبال على الكتاب في الأوساط العلمية، فترجم إلى لغات أخرى وأضيفت له بعض الإضافات لتسهيل الفهم "ولا نعرف كتابا آخر قد حصلت له من بين الكتب الطبية والصيدلانية العربية المنقولة للغات الأجنبية".

ج-ظهور ظاهرة انتحال لفكر وكتب ابن الجزّار كما حدث مع قسطنطين الافريقي الذي ادعى أن كتاب "زاد المسافر" له؛ وهذا يدل على أهمية الكتاب وشهرته(بن مراد ابراهيم،1986 : 123).

أما الكتب المترجمة لابن الجزّار فهي:

1-كتاب "زاد المسافر" الذي ترجم في القرن العاشر إلى اللغة اليونانية باسم ephodes ، وقد ظلت هذه الترجمة إلى القرن 16م. كما ترجمه قسطنطين الافريقي في القرد 11م تحت عنوان viaticum peregrinantis;

ونسبه لنفسه، وأكد على ذلك في مقدمة الكتاب قائلا:" لقد رأيت أن أؤكد نسبة هذا الكتاب لي لأن أناسا ممن يحسدون غيرهم لما ينجزونه من عمل يلجأون إلى انتحال

كتب غيرهم التي تقع تحت أيديهم وادعائها لأنفسهم"((leclerc lucien, 1876 v 2 p 361 :إلى أن جاء المستشرق الفرنسي في القرن 19 شارل دارنبز وصحح الأمر (بن مراد إبراهيم، 1986 : 124). لقد ترجم الكتاب إلى عدة لغات وكذلك للغة العبرية في سنة 1124 و1259م.

2-"كتاب الاعتماد"، وقد ترجم إلى اللاتينية والعبرية،أما اللاتينية فقد قام بها قسطنطين الافريقي ونُشرت باسمه في 1536م تحت اسم liber de gradibus simplicium وانتحله أيضاً.

3-"كتاب الخواص"، الذي ترجم بالاتينية باسم de proprietatibus وترجم بالعبرية أيضاً.

4-"كتاب النسيان وطرق تقوية الذاكرة"، ترجم بالاتينية والعبرية.

5-"كتاب في المعدة وأمراضها ومدواتها"، نقله قسطنطين الافريقي إلى اللاتينية وانتحله لنفسه، نشر باسم قسطنطين في 1536 تحت عنوان libre de stomachiasi

6-مقال في الجذام، ترجمها قسطنطين وانتحلها لنفسه.

7-كتاب "طب الفقراء والمساكين"، ترجم إلى اللغة العبرية.(بن مراد ابراهيم، 1986 : 125)

لقد وصلت أفكار ابن الجزّار الطبية والصيدلانية إلى أوروبا أيضاً عن طريق قسطنطين الإفريقي 1020-1087م، الطبيب المستعرب الذي ولد بقرطاج أو القيروان، والذي عاش فيها طبيبا مسلما ثم هرب إلى إيطاليا واعتنق المسيحية على المذهب الكاثوليكي، وتَرَهَب واعتزل في دير " البَنْديكتي بمُونتْ كاسِينو" ، وكان قد أخذ معه مجموعة من الكتب عمل على ترجمتها إلى اللغة اللاتينية؛ من بينها كتاب ابن الجزّار "زاد المسافر" -الذي جاءت ترجمته ركيكة-وعمل على نشره في أوروبا منتحلا إياه، فزاد الكتاب أوروبا تنويرا طبيا وصيدلانيا.(قاسم محمد محمود الحاد، د ت : 94-95)، (العقيقي نجيب، 1980 ، ج 1 : 121).

لما ذاعت أخبار ابن الجزّار في الأمصار جاءه طلاب طبّ من الأندلس، صحيح أن المصادر لم تذكر سوى الطبيب الأندلسي عمر بن حفص بن بريق الذي عاش في أواسط

القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الذي لازمه ستة أشهر في حدود سنة 350هـ/961م (ابن جلجل، 1955 : 107) لكنها قد تكون قد اهتمت بذكره عن غيره لأنه كان قد أخذ معه نسخة من كتابه " زاد المسافر" وأذاع أمرها في البلاد، وخدم الطب اعتمادا عليها، ومن ابن بريق ألف أبو داوود سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل في الطب اعتمادا عليه، ثم نقل عليه ابن أبي أصيبعة كتاب "عيون الأخبار. (السويسي محمد، 1983 : 20) ومن الأندلس انتشرت أفكار ابن الجزار في أوروبا.

لقد ذكرت المستشرقة زيغريد هونكة أن ابن الجزّار كان يغلق عيادته صيفاً ويُرابط مع السُفن العربية من مرفأ تونس إلى الشواطىء الغربية لتقوم بحملاتها ضد "الكفار" ويعمل طبيبا على ظهرها، كان ينزل ويقدم نصائح طبية للحجاج فتقول: "ولعله وصل مرات إلى شواطىء إيطالية الوسطى والشمالية وجنوب فرنسا أو شمال اسبانيا، ووصل مرات أخرى إلى أعالي نهر التيبر في رومة، ومركز القديس بطرس،"بازليك القديس" وكان يُسجل كل ما يجري أمامه، ويزيده نصائح خاصة للحجاج" (زيغريد هونكة، 1993 : 288). ومن هذا نفهم أن أفكار ابن الجزّار الطبية والصيدلانية أوصل جزءاً منها هو بنفسه، إذْ كان يلتقي بالحجاج ويقدم لهم نصائح طبية ساهمت بظهور نهظة طبية بأوروبا. وهذه الفكرة وردت أيضا عند بروكلمان الذي قال: " كان (ابن الجزار) يشترك كل صيف في الحملات البحرية على الكفار" (بروكلمان كارل،1959 : ج4 ص 296). وكررت الغزاوي حليمة هذا الرأي (الغزاوي حليمة، 2002 : 19)، بل أن هناك مَن قال أن ابن الجزار كان يقوم بالقرصنة في أعماق البحر انطلاقاً من رباطات الساحل التونسي (ammar sileim, 1965 p: 52) والواقع ، أن كل ما قاله هؤلاء بعيدا عن الحقيقة، وليس إلا تأويلا خاطئا لِما جاء به ابن جلجل القائل : " وكان ابن الجزار ينهض في كل عام إلى المنستير-رابطة البحر- فيكون هناك طول أيام القيظ، ثم ينصرف إلى افريقية" (ابن جلجل، 1955 : 89). فابن الجزار كان على مايبدو يستجم في المنستير صيفا ليس إلا، ولم يُذكر أنه كان يخرج من تونس مع الفاتحين، قد يكون في حضوره في المنستير يُشرف على صحة الفاتحين قبل انطلاق سفنهم الذين كانوا يحملون كتبه وما يصنع من أدوية معهم وينشرونها أينما حلوا وخاصة أن ابن الجزّار كان سخيا في منح

الدواء والتعريف بطرق تحضيرها مجانا للجميع، كما أنه لم يُعرف أن ابن الجزّار قد غادر افريقية أبداً.

-خاتمة

لقد كان ابن الجزّار منارة علمية واقعية إنسانية، اعتمدت مناهج علمية في التجربة والبحث والتدقيق والتقسيم والتفصيل في الطب والصيدلة، أنار شمال افريقيا وأوروبا بعلاجات جديدة سهلت حياة المرضى، وأزالت ألمهم لازالت بعضها ممارسة إلى اليوم وستظل دائما، غير أنه لم يصل شهرة كبيرة لضياع الكثير من مخطوطاته، وعدم نشر ما وصلنا من كتبه إلا قليلا، وتجاهل أئمة المالكية ذكره لاعتقادهم أنه على المذهب الشيعي، على الرغم من أنه كان سنيا ولم يتكالب كغيره من الأطباء والعلماء للذهاب إلى مصر مع الفاطميين .

لقد ساهم ابن الجزّار بتوسيع اللغة العربية بمفردات علمية طبية وصيدلانية وجعلها لغة علم حيث كان يطلق تسميات عربية على الأعشاب المجهولة التي كان يقطفها من أماكن مختلفة وبعيدة، وكان يرسمها ويعطي مرادفات لها باللغات أخرى، وخاصة اليونانية والبربرية التونسية، و كان يُعرب ما وُجد من الأعشاب بلغات أخرى، وكان يصنع الأدوية ويطلق عليها أسماء عربية، ويُشهر طرق صناعتها حتى تعم الفائدة. كما كان سخيا كريما يُعالج مرضاه الفقراء والمساكين مجانا معبرا عن إنسانية الطبيب الرحيم.

-قائمة المصادروالمراجع

-ابن أبي أُصيبعة، 1957، عيون الأنباء، ط 1، القيروان، دار الفكر ومطبعة الإقبال.
-بروكلمان كارل، 1959، تاريخ الأدب العربي، ط1، بيروت، دار الآفاق الجديدة.
-ابن الجزّار أحمد، 1968، سياسة الصبيان وتدبيرهم، ط 1، تونس، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث.
-ابن الجزّار أحمد، 2009 ، طب الفقراء والمساكين، ط 1، تونس، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث.

-ابن جلجل سليمان بن حسان، 1955، طبقات الأطباء والحكام، ط 1،القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية.

-حاجي خليفة، 1943، كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون، ط 1، اسطنبول، وكالة المعارف.

-زيغريد هونكه،1993، شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوروبا، ط 2،بيروت، دار الجيل ودار الأفاق الجديدة.

-السويسي محمد، 1983، ألفية ابن الجزّار، ألفية ابن الجزّار، حوليات الجامعة التونسية، العدد22. ص ص 17-33.

-الشيخ حسين عادل محمد، 1989، ابن الجزّار القيرواني، سيرته، مؤلفاته، جهوده في الطّب والصيدلة، ط 1، بغداد، مركز إحياء التراث العلمي العربي.

-عبد الوهاب حسن حسني، 1965-1972، ورقات عن الحضارة العربية بافريقية، ط 1، تونس، مكتبة المنار.

-ابن عذاري أبو العباس أحمد، 1948، البيان المغلرب في أخبار الأندلس والمغرب، " 1، ليدن،

-العقيقي نجيب، 1980، المستشرقون ج 1 ، ط 3 ، القاهرة، دار المعارف.

-الغزاوي حليمة، 2002، بناة الفكر العلمي في الحضارة الإسلامية، ط 1، الرباط، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

-قاسم محمد محمود الحاج، 1983، تاريخ طب الأطفال عند العرب، ط 2، جدة، مطبوعات شهامة.

-قاسم محمد محمود الحاج، د ت، مكتبات الترجمة ومدارس الطب الرائدة في التراث العربي، ط 1، الموصل، دار ماشِكي للطباعة والنشر والتوزيع.

-القاضي عياض، 1968، مدارك القاضي عياض، ط 1، تونس،الجامعة التونسية.

-قطاية سليمان، 1982،كتاب دفع مضار الأبدان بأرض مصر لعلي بن رضوان، مجلة الطب العربي، بيروت العدد 7، ص ص 91-92.

- كشاجم أبو الفتوح، 1970، الديوان، ط 1، بغداد، وزارة الإعلام.

- بن مراد إبراهيم، 1986، أحمد بن الجزّار القيرواني حياته وآثاره وتأثيره، مجلة الحياة الثقافية، العدد 41، ص ص 115-129.

- المالكي أبو بكر، 1983، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، ط1،بيروت، دار الفكر الإسلامي.
- بن مراد إبراهيم، 1983، التداخل اللغوي والثقافي في كتاب "الاعتماد" لأحمد بن الجزّار القيرواني (مساهمة في احياء الذكرى الالفية لوفاة ابن الجزّار)، ألفية ابن الجزار، حوليات الجامعة التونسية، العدد 22ن ص ص 35-158.
-بن مراد إبراهيم، 1983، مسيرة علم النبات عند العرب (من مرحلة التدوين اللغوي إلى مرحلة الملاحظة العلمية المحض) الندوة العالمية الثالثة لتأريخ العلوم عند العرب، الكويت، ديسمبر 1983 ص ص 18- 15.
-Ammar Sileim, 1965 en souvenir de la medecine arabe.(1ere ed). tunis s. t. d.
-Ben milad Ahmed, 1933 l ecole medicale de kairouan (1 ere ed).paris.
-Idris (h.r.), 1962 la berberie orientale sous les zirides (1 ere ed) paris.
-Leclerc Lucien, 1886 histoire de la medecine arabe (1ere.ed) paris.ernest leroux .